حارة العرين ... مطرح الحقيقية

استعادة لعمر سفحناه وحاضر لا يشبهنا

أقلب صفحات الطفولة فتتلألأ مطرح، وأتصفح دفاتر المدرسة فتتوهج القلعة في كراسة الرسم.

وأمشي في دروب الأيام المطرحية فتتضخم العرين في الأمس، وكأنها هي مطرح بل هي كل مطرح، بل هي مطرح الحقيقية تماما كماليزيا التي توصف بآسيا الحقيقية .

ونستيقظ كل صباح في العرين على القلعة التي تنتصب على شاهق يفصل الحارة عن البحر، وحين يطلب منا استاذ الرسم في السعيدية أن نتخير موضوعا نرسمه تحضر القلعة بعنفوان أبراجها الثلاثة المتصلة بسور مستقيم فيسهل علينا تخيلها عن ظهر قلب.

تجول في دروب العرين: حمود بن سالم السيابي

وكانت منذ طفولتنا بلون الجص ولا تزال، فيسهل علينا التلوين .

وكانت الراية السعيدية على ساريتها حمراء بلون الهيبة فتلتهب معها المشاعر فتؤدي لها التحية .

وحين تشرق الشمس في مطرح تسترد الراية الحمراء لونها على سارية القلعة، ويشتعل خشب باب بيت البرزة هيبة تزلزل الأفئدة .

وكانت العرين لا تغمض عينيها إلا على ضرب طبلة النوبة من القلعة في المساء ككل الحارات، ولكنها الوحيدة التي تجاور بيت البرزة وتصحو على صرير فتح بواباته ليدخل مع ضوء الصباح القضاة والكتبة والعسكر والتجار وعامة الناس، فالعرين ساعة البلدة وبيدها قلادة مفاتيح الأقفال .

وقد أهلها موقعها المهم للعب هذا الدور القيادي لمطرح كونها محاطة بالقلعة وبيت البرزة ومحطة الكهرباء والدروازة، وهي المتحكمة بطريق القوافل المتجهة نحو السوق والفرضة بعد أن تدخل البلدة من باب المثعاب، ويمخرها الطريق السلطاني القادم من عتبة بيت الفلج ومدرج المطار والمتجه إلى عتبة قصر العلم أو ما يعرف ببيت العلم.

ومع بزوغ فجر النهضة المباركة كانت العرين على خط سير الموكب الميمون في أول إطلالة له إلى عاصمة ملك آبائه. إذ شق الموكب طريقه من مدرج مطار بيت الفلج عبر دروازة مطرح وانتهاء بمقر إقامته بمسقط فكانت تلك صفحة للعرين وأية صفحة .

وكثيرا ما يباغت إسماعيل الرصاصي صباحات مطرح بعمامته السعيدية فيحدثها من موقعه المهاب والمتقدم في هيكل الدولة فتتوهج مع حديثه بشرته الحمراء وألوان العمامة وخفقان العلم السعيدي ما يجعل كرسيه الدوار ببيت البرزة يدور به ٣٦٠ درجة، وتلتف معه مطرح آلاف الدوائر والدرجات .

وفي العشرين من جمادى الثانية سنة ١٣٨٣ هجرية الموافق ليوم ما، وشهر ما، من عام ١٩٦٣ م، جئنا لمطرح فالسيد أحمد بن إبراهيم ناظر الشؤون الداخلية أجرى المناقلات المعتادة للولاة والقضاة فكان نصيب الوالد الانتقال إلى مسقط وتسليم الحصن للشيخ أحمد بن ناصر البوسعيدي المنقول من سمائل إلى بدبد، يومها طوى الوالد البندير الحمراء من سارية حصن بدبد بعد أن بدا لونها بفعل شمس المكان يميل للبياض، وألبس السارية بنديرة حمراء جديدة واحتفظ بالقديمة تذكارا قد يفصلها مصرا للعيد لأحد أطفاله، وقد يهديها لرجل من بدبد يقدمها شالا لصبية ستكبر يوما وتعرف أن شال العيد الذي يغطي جدائلها كان شال حصن يغطي جدائل التاريخ .

جئنا إلى مطرح بدهشة الانفتاح على عالم مختلف حيث المدرسة التي تبدأ بطابور الصباح وتختتم يومها برنين الجرس. والمستشفى الذي يسرج إليه الناس أوجاعهم، وهنا السيارات والكهرباء والمطاعم والناس التي تتأبط المذياع وهي تستمع لشجن يمني وأغنية هندية وتخفي عيونها خلف نظارات سوداء .

وقد كانت إقامتنا في حارة العريانة التي صححت لاحقا لتكون العرين في بيت

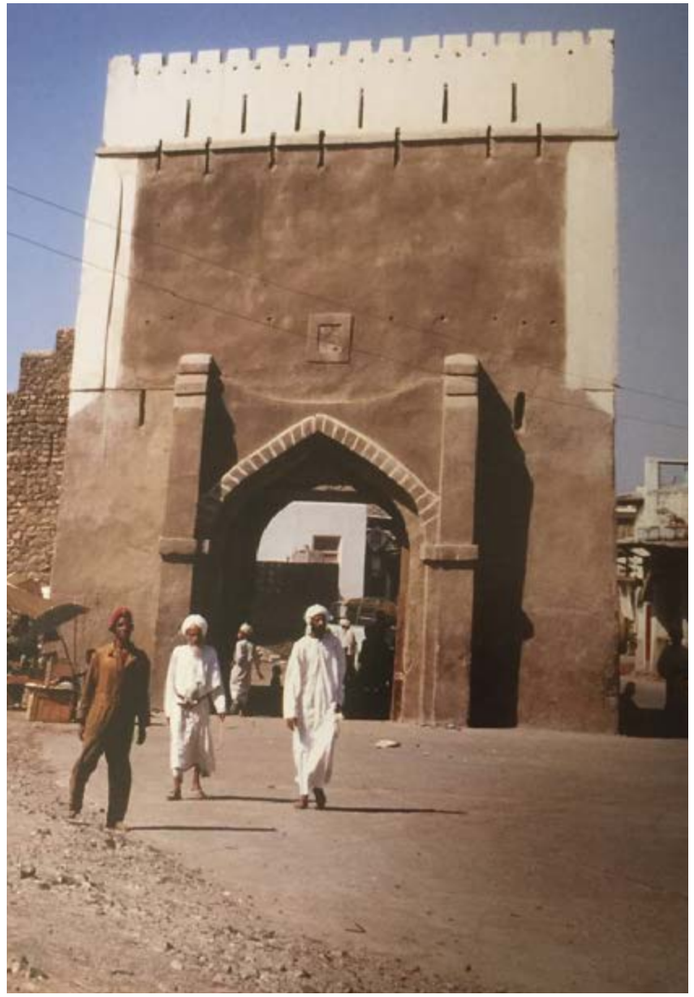

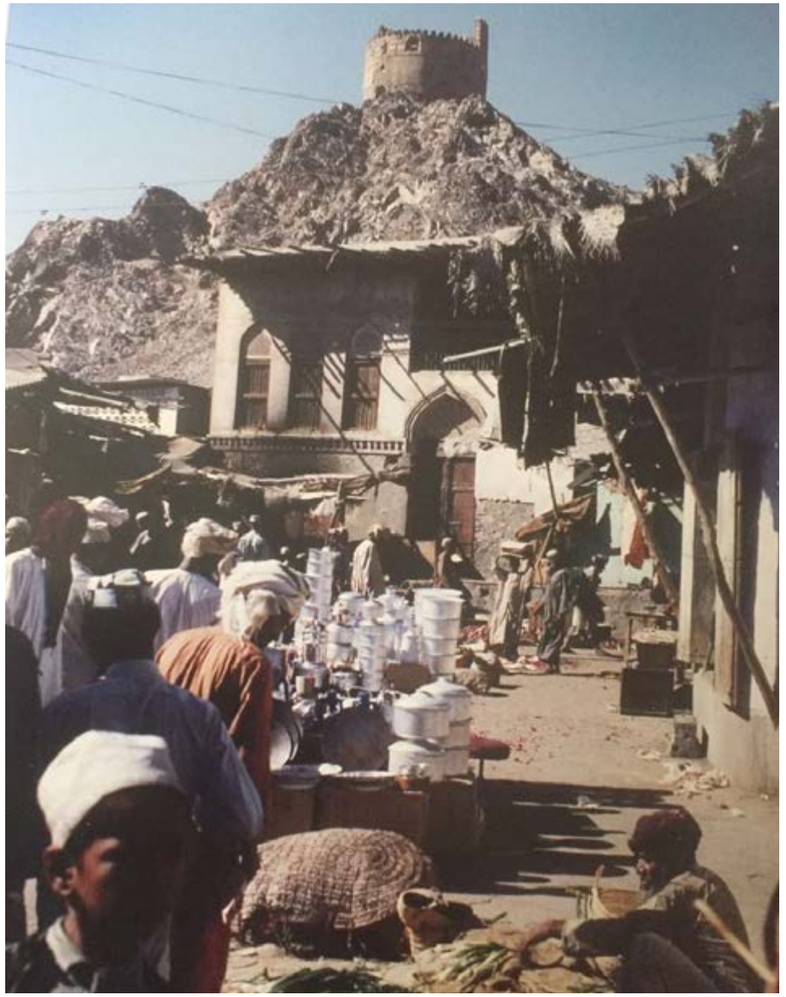

استأجرته نظارة الداخلية للوالد من مالكه زهران الهنائي المعروف بزهران الحلاو .

ولم تكن ستينيات القرن الماضي أولى تكحلنا بمطرح والموج وأبواق السفن التي تغزل بحر عمان، ولكنها محطة من محطات تداول المواقع القضائية للوالد، إلا أنها المرة الأولى التي نقيم فيها بمطرح ، وتحديدا في العرين أو مطرح الحقيقية .

أمخر دروب العرين لأقرأ شخابيط طفولتنا على الحيطان التي شكلت شاشات أزمنتنا فنغرد عليها ونبثها أحلامنا الخضراء.

وأتجول بين البيوت لأشم آثار أقدام كانت تمرح هنا وتتقاذف الكرات، وأستعيد أحافير إطارات دراجات كانت تتسكع وتتسابق، وأصغي لثغاء سخال تؤوب إلى حضائرها بعد رعي في الطرقات وأماكن تجميع القمامة .

كانت بيوت العرين جميعها تتألف من دور واحد باستثناء بيتي الوجيهين المطرحيين عبدالله الخنجي وسيف بن سليمان الحارثي إذ يرتفع الأول إلى دورين وأضاف الثاني ما اصطلح عليه ب «البنتهاوس» وهو عبارة عن غرفة وصالة مفتوحة لضوء الشمس ونسيم البحر وعلم الدولة البوسعيدية وأطيط كرسي الوالي إسماعيل الرصاصي .

ومن سطح بيتنا المنكشف على كل البيوت كنا نرى الطريق السلطاني ، وكانت متعتنا المسائية أن نرقب لحظة الغروب و نحصي السيارات القادمة من مسقط والذاهبة إليها ، فكنا ننقسم بين من يختار الذاهبة ومن يختار الآيبة .

وكانت متابعة أضواء السيارات متعة أخرى لليل مطرحي مدلهم إذ كانت الكهرباء للمحظوظين رغم أن «الباور هاوس» بنفس الحارة، ومع ذلك فالشوارع مظلمة وتقتصر الإنارة ليلا على بعض بيوت التجار والهوتيلات كهوتيل الجواذري وهو تيل داوود الأقرب للعرين .

وبين جدران بيت زهران الحلاو سفحنا طفولتنا المطرحية وفي سبلته تفتحت عيوننا على الكبار من ضيوف الوالد من علماء وأدباء ووجهاء.

ومن عتبة ذلك البيت نخرج كل صباح لنكتحل بجدران بيوت زهران الحلاو الذي يسكن في الجزء الشرقي من بيتنا فبيت التاجر المعروف سيف الحارثي فبيت سعيد الجابري والد الوزير يحيى الجابري رئيس هيئة تطوير الدقم ثم بيت عبدالله ولد التيس وإلى الغرب يشمخ بيت الخنجي وعلى مقربة منه يتألق في المكان بيت الوجيه المطرحي والتاجر المعروف الشيخ محسن بن حمد الراشدي جد وزير الإعلام السابق حمد بن محمد الراشدي، وعلى الضفة الثانية من طريق القوافل والتي باتت طريقا للسيارات ينتصب بيت الوجيه المطرحي الشيخ علي بن منصور السليمي عم وزير التربية والتعليم السابق يحيى بن سعود السليمي، وعلى مقربة منه بيت الوجيه المطرحي التاجر سالم بن محمد الوهيبي الذي يصدر التمور لشبه القارة الهندية وبعض دول آسيا، وفي الجهة المقابلة للشارع بجوار بيت البرزة هناك مبنى «الباور هاوس» والمسجد الخمري وبيت الحلاو سيف الأخرمي وبجواره إلى الغرب بيوت الراشديين وعبدالله بن سلوم .

بينما تنتهي العرين في الجنوب عند باب المثعاب حيث تصطخب الحياة عند دكان الرقيشيين أولاد أحمد بن مطر ودكان أبي حمد الرحبي. وقبالتهما دكان بيع الماء العذب الذي يأتي إلى العرين بالقرب من اللولوة فتحمله النسوة على رؤوسهن «بالهاندوات» إلى البيوت، وخلف دكان الرقيشيين بجانب السور يتكئ منزل السيد خالد السعيدي الذي يذرع الحارة جيئة وذهابا

كل صباح بثياب بيضاء جديدة لا ترى على الناس إلا في الأعياد وذلك قبل أن يتوجه لمقر عمله بالمحكمة الشرعية كأحد كتبتها، فكل أيام خالد السعيدي بدشاديش العيد.

عشت في هذه الجغرافيا الصاخبة العمر الغض ولما كبرت كانت العرين ذاكرتي المحملة بالكثير ومسطرة قياساتي لكل الأشياء .

وحين تركت العرين ككل الذين تركوها وسافرت وانفتحت على العالم لا تزال الحارة تنهض في ذاكرتي فأسقطها على كل الأشياء من حولي .

وفي أواخر سبعينيات القرن الماضي كنت في «بدفورد» في ريف إنجلترا الأخضر فما أن تهجيت اسم بدفورد إلا وأخذني التحنان إلى سيارة البدفورد التابعة لمحمد بن سالم الوهيبي التي أقلتنا لأول مرة لعرين مطرح ونستقلها كل صيف من خلف الحائط الغربي لبيت محسن بن حمد بالعرين إلى الفيحاء .

وكلما سمعت مقرئا في إذاعة من الإذاعات يرتل تلاوة القرآن تسرح الذاكرة لأيام العرين حيث أبي يعطر الفجر بقراءته .

وكلما أذن المؤذن في جامع من الجوامع بعواصم العالم رجعت الى صوت يحيى الريامي مؤذن المسجد الخمري في العرين فأراه ملائكيا وسماويا لأنه يرسله عفويا دون تكلف .

وحين نزلت مطلع الثمانينيات من نفس القرن بفندق المرينيين بمدينة فاس المغربية لأغطي قمة فاس لجريدة عمان ذكرتني خروس صبغ الجلود التي تصطف في طريقنا من الفندق للقمة بخروس صناعة النشاء في باغ زهران الحلاو في العرين.

وكلما مررت ببيوت الدباغة في فاس أنتقل فورا إلى العرين التي تحتفظ بأكبر مخزن لجلود الأبقار والأغنام في عمان.

وفي كل مرة تقع فيها عيناي على قنديل زيت أستعيد ليالي سطح بيت زهران حيث نكتب على ضوء شعلته المرتعشة واجبات المدرسة السعيدية .

وكما عشت دهشة الانتقال بين الداخلية ومسقط عشت فرحة إدخال أبي الكهرباء لبيت زهران وذلك في ٢٣نوفمبر من عام ١٩٦٧ بعد أن دفع الوالد ٤١٦ روبية تكلفة خطوط الربط والتوصيل ونقاط التوزيع الداخلي .

وأتذكر أن أولى فواتير الكهرباء عن أول شهر استهلاك كانت ١١ روبية وذلك في ديسمبر من عام ١٩٦٧ إذ تساوينا مع جيراننا من حيث التنعم بمميزات مطرح أسوة بمقر الولاية ودكاكينها وبيوت تجارها ووجهائها التي يغمرها النور كل ليلة بعد أن ودعت القنديل وتخلصت من شقاء تعبئته بالحل تراب وتنظيف شمليته كل ليلة.

كما دخل الهاتف غرفة نوم الوالد فأتاح له التواصل مع علية القوم الذين سبقوه بتوفر هذه الخدمة المترفة بقياسات ذلك الزمان.

ومن جنبات ذلك البيت الصغير الذي لا يستأثر فيه الوالد إلا بغرفة صغيرة وضع الوالد اللمسات الأخيرة على أول كتابين يدفعهما لألسن المطابع وهما «العنوان عن تاريخ عمان وإسعاف الأعيان في أنساب أهل عمان .

وأكمل فيه موسوعته الفقهية «العقود المفصلة في الأحكام المؤصلة».

وسال حبر قلمه على صفحات من نور وهو يخط في بيت العريانة أو العرين كتابه «العرى الوثيقة لمن جهل الطريقة».

وأجاب عن أسئلة زوار بيت العريانة من عموم ولايات عمان حول أحكام صلاة السفر في كتابه «القول المعتبر في أحكام صلاة السفر».

ولم يكن التاريخ وهو قلقه الدائم وشاغله وهاجسه ببعيد عن بيت العرين كبيت شاهد على تحولات عمان الكبرى، فأضاف لما سبق كتاب «إيضاح المعالم في تاريخ القواسم» .

وقد احتفى الوالد في ذلك البيت المطرحي الصغير بعدد من الضيوف الأجلاء الذين أعطوا بزياراتهم مبررا للوالد لأن يتغرب عن الفيحاء ونسجوا معه وشائج إنسانية عطرت الحياة وأثرتها وأفاد بها واستفاد حيث التقى بنخب عمان وعلية قومها وعلى رأسهم عدد من السادة من آل سعيد.

كما التقى في ذلك البيت المطرحي الصغير بالمشايخ العلماء الأجلاء من بقايا السلف الصالح الذين عطروا الحياة أمثال خلفان بن جميل وإبراهيم بن سعيد العبري وأحمد بن حمد الخليلي ومحمد بن شامس البطاشي وسعيد بن خلف الخروصي وخالد النقبي والقاضي القطري أحمد بن حجر آل بوطامي البن علي، وعدد من قضاة مسقط ومطرح كالمشايخ محمد بن راشد الخصيبي وهاشم بن عيسى الطائي وإبراهيم بن سيف الكندي ومالك بن محمد العبري.

كما التقى فيه بعدد من المشايخ يتقدمهم الأمير الشيخ أحمد بن محمد الحارثي وعبدالله بن حمدون الحارثي والزعيم الشيخ.... بن سعيد السيابي وناصر بن سعيد السيابي وخلف بن محمد بن نصير الخروصي وزهران بن محمد الحراصي ونجليه سليمان وسعيد بن سلطان الرحبي وصالح بن سعيد الكندي وسليمان بن سعيد السيابي وسعيد بن خلفان الهدابي وعلي بن خلفان السيابي وسعيد بن محمد المحروقي ولفيف من وجهاء عمان. وفي مقدمتهم وجهاء مطرح

كما احتفى فيه بالأساتذة أحمد التدمري السوري المقيم برأس الخيمة وممدوح عزمي صاحب اليد البيضاء في تيسير دخول العمانيين للجامعات المصرية قبل وبعد النهضة المباركة. وبعدد من الإعلاميين المحليين والوافدين .

ومن سبلة بيت العريانة تابع الوالد عبر الراديو نكسة ٦٧ وحرب ٧٣ ولحظة بدء أول بث لإذاعة عمانية يردد فيها المذيع «هنا مسقط » بعد أن ألفت الأذن طويلا هنا لندن وهنا الكويت وهنا القاهرة.

وتابع الوالد مع زوار ذلك البيت النقلة الجبارة في عمان، وتغير اسم البلاد إلى سلطنة عمان وتغير عملتها من الروبية إلى الريال السعيدي فالريال العماني.

وأعود اليوم إلى العرين وأراها كما كانت مطرح الحقيقية بشموخ القلعة وبيت البرزة الذي أعيد بناؤه بعد انهياره بعاديات الزمن حيث كان آخر من أقام صاحب السمو السيد ماجد بن تيمور آل سعيد وبيوتها الكبيرة

الباقية على حالها .

إلا إن المحزن في العرين أن الناس الذين مثلوا زهرة الحياة قد رحلوا فالحلاو زهران صب آخر مرجل في الديست وأطفأ آخر حطبة سمر ليرث ابنه محمد المهنة، ولكن باغ أبيه اختفى بخروسه فتحول المصلى في الباغ إلى مسجد بناه الشيخ محمد بن زهران الهنائي .

كما آل إليه البيت الذي كنا نسكنه فهدمه وأقام آخر مكانه فحزنت لأن ورقة من طفولتي قد ذبلت ولأن البيت الذي استضاف فيه أبي العلماء والأعلام بات يعج بأغانٍ هندية وتدخل وتخرج منه لابسات الساري .

أما جارنا سعيد الجابري فأغلق «مقهاته» المقابلة للدروازة وبقي بيته يحتسي فنجانه حزينا وحده .

وسيف بن سليمان الحارثي وهو أول من أدخل التلفزيون للعرين وتابعنا من شاشته وصول الإنسان للقمر رحل إلى جوار ربه وتفرغ البنتهاوس لمحاورة العدم بعد أن تكسر «أريل» التلفزيون وتركت أسرته الحارة إلى الخوير والسد بينما دكانه تحول إلى محل ليبيع فيه ابنه محمود القدور والصواني والمغارف وبقية أواني المآدب لعله رأى أن تجارة والده لم تعد مربحة لكثرة المنافسين .

ورحل عبدالله ولد التيس من الحارة ومن سوق الظلام وتفرقت أسرته .

ولم يعد الشيخ محسن بن حمد في المكان وبقي بيته حزينا ويتيما يسائل الأمس عن الأمس بعد أن كان عامرا بالرجال وقنطرة بين مناطق الداخلية ونظارة الداخلية .

أما الخنجي فقد خلع عمامته وكوته الأقرب للشلواني وترك بذخ المكان لابنه الخليل يستضيف فيه كل رمضان رجالات الدولة .

ولم يوصد الشيخ علي بن منصور السليمي باب بيته رغم رحيله لبيوت أفضل، وظل الفراغ بين بيته وبيت الخنجي فارغا بعد أن كانت مطرح تقيم فيه العيود، ومنه كان يتحرك موكب صلاة العيد باتجاه مشارف حارة اللولوة حيث ينتصب أبي ليؤم المصلين بخطبة الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي .

كما سافر من العرين آخر جراب تمر من صادرات سالم بن محمد الوهيبي إلى بورما، واعتزل المورد بعدها تجارة تصدير التمر وأغلق تجوري بيع العملات المعدنية من آنات سعيد بن تيمور ورحل .

وتبعه على نفس الدرب زميله في نفس التجارة عبدالله بن سلوم . وأغلق سيف الأخزمي هو الآخر مصنع الحلوى المجاور لمحل «مستر فويس» وبقي بيته يفتقد هدير «الباور هاوس» الذي أغلق. وأمر على العرين اليوم فأراها لا تزال مطرح الحقيقية لكنها تنعب مطرح الحقيقية، فقد احتفظت بالبيوت المنيفة وتركتها لوجوه لا تشبهها، وللغات لا تفقهها، ولثقافات لا تليق بها .

إنه شقاء الأمكنة في رحيل السعداء الذين كانوا هنا فرحلوا، فيا وجع المكان لتذكر سادة المكان.